

التحرير والتنوير

وجملة (إنهم لن يغنوا عنك من الآء شئنا) تعليل للنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون ويتضمن تعليل الأمر باتباع شريعة الآء فإن كونهم لا يغنون عنه من الآء شئنا يستلزم أن في مخالفة ما أمر الآء من اتباع شريعته ما يوقع في غضب الآء وعقابه فلا يغني عنه اتباع أهوائهم من عقابه .

والإغناء : جعل الغير غنيا أي غير محتاج فالآثم المهدد من قدير غير غني عنه الذي يعاقبه ولو حماه من هو كفاء لمهدده أو أقدر منه لأغناه عنه وضمن فعل الإغناء معنى الدفع فعدي ب (عن) . وانتصب (شئنا) على المفعول المطلق و (من الآء) صفة ل (شئنا) . و (من) بمعنى بدل أي لن يغنوا عنك بدلا من عذاب الآء أي قليلا من الإغناء البديل من عقاب الآء فالكلام على حذف مضاف وتقدم عند قوله تعالى (إن الذين كفروا لن يغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الآء شئنا) في آل عمران .

وعطف على هذا التعليل تعليل آخر وهو (وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض) أي إنهم ظالمون وأنت لست من الظالمين في شيء فلا يجوز أن تتبعهم في شيء وإنما يتبعهم من هم أولياؤهم . وذيل ذلك بقوله (وآء ولي المتقين) وهو يفيد أن التبيء صلى الآء عليه وسلم آء وليه لأن النبي صلى الآء عليه وسلم أول المتقين .

(هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون [20]) إن كانت الإشارة إلى الكلام المتقدم وما فيه من ضرب المثل بموسى وقومه ومن تفضيل شريعة محمد على شريعة موسى عليهما الصلاة والسلام والأمر بملازمة اتباعها والتحذير من اتباع رغائب الذين لا يعلمون فهذه الجملة بمنزلة التذييل لما قبلها والتهيئة لأغراضها تنبيها لما في طيها من عواصم عن الشك والباطل بمنزلة قوله تعالى بعد عدة آيات في آخر سورة الأحقاف (بلاغ) وقوله في سورة الأنبياء (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين) .

وإن كانت الإشارة إلى القرآن إذ هو حاضر في الأذهان كانت الجملة استئنفا أعيد بها التنويه بشأن القرآن ومتبعيه والتعريض بتحقيق الذين أعرضوا عنه وتكون مفيدة تأكيد قوله آنفا (هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) وتكون الجملة المتقدمة صريحة في وعيد الذين كفروا بآياته وهذه تعريضا بأنهم لم يحطوا بهذه البصائر وكلا الاحتمالين رشيق وكل بأن يكون مقصودا حقيق .

و (بصائر) : جمع بصيرة وهي إدراك العقل الأمور على حقائقها شبهت ببصر العين وفرق

بينهما بصيغة فعلية للمبالغة قال تعالى (أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) في سورة يوسف . وقال (قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر) في سورة الإسراء وقوله (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس) في سورة القصص .

ووصف الآيات السابقة أو القرآن بالبصائر مجاز عقلي لأن ذلك سبب البصائر . وجمع البصائر : إن كانت الإشارة إلى القرآن باعتبار المتبصرين بسببه كما اقتضاه قوله (للناس) لأن لكل أحد بصيرته الخاصة فهي أمر جزئي بالتبع لكون صاحب كل بصيرة جزئيا مشخصا فناسب أن تورد جمعا فالبصيرة : الحاسة من الحواس الباطنة وهذا بخلاف أفراد (هدى ورحمة) لأن الهدى والرحمة معنيان كليان يصلحان للعدد الكثير قال تعالى (هدى للناس) وقال (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . وإنما كان هدى لأنه طريق نفع لمن اتبع إرشاده فاتباعه كالاتداء للطريق الموصلة إلى المقصود . وإنما كان رحمة لأن في اتباع هديه نجاح الناس أفرادا وجماعات في الدنيا لأنه نظام مجتمعهم ومناط أمنهم وفي الآخرة لأنه سبب نوالهم درجات النعيم الأبدي . وكان بصائر لأنه يبين للناس الخير والشر ويحرضهم على الخير ويحذرهم من الشر ويوعدهم على فعل الخير ويوعدهم على فعل الشرور فعمله عمل البصيرة . وجعل البصائر للناس لأنه بيان للناس عامة وجعل الهدى والرحمة لقوم يوقنون لأنه لا يهتدي ببيانه إلا الموقن بحقيقته ولا يرحم به إلا من اتبعه المؤمن بحقيقته . وذكر لفظ (قوم) للإيماء إلى أن الإيقان متمكن من نفوسهم كأنه من مقومات قوميتهم التي تميزهم عن أقوام آخرين .

والإيقان : العلم الذي لا يتردد فيه صاحبه . وحذف متعلقه لأنه معلوم بما جاءت به آيات .